# علي محمود طه

بقلم صلاح عبد الصبور

## ـ ١ ـ

## « لوحة حياة »

في المنصورة ، أجمل مدن دلتا ، التي يعيش اسمها في التاريخ منذ اسر فيها القديس لويس ، ابان غزوته الخائبة لمصر ، ولد علي محمود طه في عام ١٩٠٢ .

والمنصورة ترقد ناعمة بين نيل دمياط والبحر الصغير « ترعة من ترع شرق الدلتا » ، وقد كانت في ذلك الزمان مقرا مزدهرا لتجارة القطن ، وفيها جالية من متمصري المهاجرين من شعوب البحر المتوسط .

وما زالت شهرة نساء المنصورة بالجمال تخايل اذهان المصريين ، وفي نسائها شقرة في الشعر واخضرارا في العيون ، والخبثاء يقولون ان ذلك من أثر الفرنسيس .

● أسرته على شيء من النعمة ، وتعليمه متوسط مهني ، اذ تخرج في مدرسة الفنون والصنائع عام ١٩٢٤ ، وظل حريصا على ان يلحق باسمه لقب « المهندس » كنوع من الوجاهة الاجتماعية . رغم أن درجة مدرسته لا تتيح له هذا اللقب ( في عرف كتاب الدواوين) الا بمشقة ومجاملة .

● عمل موظفا بأنحاء المنصورة ، وصاحب مجموعة من شعراء المنصورة ، منهم ابراهيم ناجي « البلبل الجريح » ومحمد عبدالمعطي الهمشري « عاشق الطبيعة » وصالح جودت « العازف ذي الوتر الواحد » ، وتراسل مع البلاغي والمنشيء المعروف احمد حسن الزيات، الذي كان يحرر مجلة « الرسالة » . ونشر في مجلته بعض شعره .

● انتقل الشاعر الى القاهرة في اوائل الثلاثينات ،ونشر بعضا من شعره في مجلة أبوللو ، ثم اصدر ديوانه « الملاح التائه » في عام ١٩٣٤ وعمره اثنان وثلاثون عاما ، فكان فاتحة شهرته الواسعة .

كتب عنه الدكتور طه حسين يقول :

« هو شاعر مجيد حقا ، ولكنه ما زال مبتدئا ، وهو شاعر مجيد حقا ، ولكنه في حاجة الى العناية باللغة واصولها ، وتعرف اسرارها ودقائقها ،فلا ينبغي للشعراء الذين يستحقون هذا الاسم ان يكون علمهم باللغة يسيراً محدودا . وأنا واثق بأن شاعرنا ان عنى بلغته ونحوه وقافيته ، وتوخى ما ألف من خفة التصوير ورشاقته ودقته ، فسيكون له شأن في تاريخ الشعر العربي الحديث»

وكان ذلك الحكم الختامي من طه حسين بعد كثير من الاطراء وقليل من المؤاخذة .

● نشر بعد هذا الديوان قصائده في كبريات الصحف ، وفي صيف سنة ١٩٣٨ عبر البحر الى اوروبا . ورغم ان هذه السياحة الغربية كانت متأخرة ، الا انها اثرت فيه تأثيرا بالغا لعل الاثر الذي يدانيه في حياته هو أثر الشهرة الشعبية الواسعة التي لقيها حين غنى عبدالوهاب كبير المغنين في زماننا اغنية الجندول، ومشى المتسكعون في حواري القاهرة ينشدون :

« أنا من ضيع في الاوهام عمره » .

وكان ذلك في عام ١٩٤٠ . وفي ذلك العام ايضا اصدر علي محمود طه ديوانه « ليالي الملاح التائه » ومعظمه من انعكاسات سياحته الاوروبية .

● في عام ١٩٤٢ أصدر قصيدة حوارية طويلة عنوانها « أرواح وأشباح » ، وكان قد أصدر قبلها مجموعة من الشعر المترجم لبعض شعراء الانكليز والفرنسيين مع بعض التوابل النثرية بعنوان « ارواح شاردة » .

● في عام ١٩٤٣ صدر له ديوان « زهر وخمر » ، واستوت شهرته الواسعة ورسخت .

● في عام ١٩٤٤ أصدر مسرحية شعرية « أغنية الرياح الاربع » هي جديرة بان تدرس في نطاق نظائرها من مسرحيات شعراء الرومانتيك الانكليز ، كشيلي وبايرون ، ولكنها لا تستطيع ان تدخل في التراث المسرحي الاصيل .

● في عام ١٩٤٥ صدر له ديوان « الشوق العائد » ، وأجمل قصائده هي القصيدة التي سمي الديوان باسمها .

● في عام ١٩٤٧ صدر له ديوان « شرق وغرب » ، وكانه الانتفاضة الواهنة للذبالة المحترقة .

● توفي الشاعر عام ١٩٤٩ ، في السابعة والاربعين من عمره. بعد ان ملأ الدنيا وشغل الناس زمانا . وأتعب مقلديه من ناشئة الشعراء بفتنة موسيقاه وعالمه الموشى . ولكن الاعوام التي تلت موته تشهد ـ لامر لا نذريه ـ لونا من خمول الذكر او اضمحلاله .... أظلم ذلك ام عدل ؟

## ـ ٢ ـ

## محاولة جواب

ينقلني الحديث عن علي محمود طه الى جنة الصبا وبراءته ،لاراني حدثا يطمع ان يكون شاعرا ، فهو يحفظ ويقرأ ويقرزم ، وينقل عينه بين لزوميات ابي العلاء وسيفيات المتنبي ، فاذا استشرف عصره قرأ لشاعرين كانا في ذلك الوقت مهوى أفئدة محبي الشعر في مصر ، اذ كان سواهما من شعراء سائر ارض الوطن العربي عنا ناثين لا نكاد نرى نتاجهم .

كنت مفتونا بأحد هذين الشاعرين ، مجرد محب للاخر ، وكنت نقيضا في ذلك لمعظم اصحابي الذين كانوا يحفظون ويقرأون ويقرزمون معي . أما فتنتي فكانت بمحمود حسن اسماعيل ، وكان حبي لعلي محمود طه .

كان علي محمود طه في تلك الفترة قد استوفى عطاءه الشعري. وكانت ايامه القليلة تشارف نهايتها . ورغم انه كان في ذلك الوقت في حوالي الخامسة والاربعين من عمره فقد كنا حين كنا نقرأ شعره نتوهمه شابا جاوز الثلاثين بقليل ، رغم انه قال لنا ذات مرة :

فزعت لكم من وراء السقام

وقد جلل الشيب رأسي اشتعالا

وما ان بكيت الهوى والشباب

ولكن بكيت العلا والرجالا

وحين جئت القاهرة من بلدتي الصغيرة قبل أن يفارق علي طه الحياة بعامين ، كان مطمحي أن أرى شاعري . وفي أحد مقاهي الجيزة القريبة من الجامعة تعرفت بأنور المعداوي رحمه الله . وكان في ذلك الوقت ألمع النقاد الشبان ، وكانت له صحبة نعرفها بعلي محمود طه ، فرجوته ان يقدمني اليه لاسمعه بعضا من شعري . وقال لي المعداوي ان علي طه يتخذ له مجلسا في أحد المقاهي الراقية في وسط القاهرة ، ولعلي لهذا ، وانا الصبي الريفي تهيبت اللقاء.

اما محمود حسن اسماعيل ، فقد كان يتخذ مجلسه في المقهى نفسه دون ان ادري . كان يجلس وحيدا معظم وقته ، في يده عصا غليظة ، وعيناه احداهما خابية والاخرى مشتعلة ، وكثيرا ما يسند ذقنه الى عصاه .

قلت لانور : وأين محمود حسن اسماعيل ؟

فضحك ضحكة رنانة ، وأشار الى مائدة قريبة قائلا :

« هاهوذا » ... قمنا عن مائدتنا ،واتجهنا اليه ، وبعدالتعارف جلست حييا محتشدا ، واسمعت محمود بعد تنحنح واستئذان متادب بعض ما فاضت به قريحة ابن السابعة عشرة ، واشهد الله ان صديقي الكبير ، فيما بعد ، محمود حسن اسماعيل، كان أكثركثيرا من متحفظ ، وكأنني،واغل دخلت عالمه . ولكنني مع ذلك قمت عن مجلسه سعيدا . وحكيته لرفاقي في الجامعة .

كنت ارى عندئذ في محمود حسن اسماعيل شاعرا متفجرا ،بينما ارى الصقل المحكم في شعر علي طه ، وكنت أؤثر التفجر على الصقل، والفوضى المنظمة على النظام ، ولكني كنت احتفظ رغم ذلك بنصف قلبي لعلي محمود طه ،ولم أكن أدري أن أصدقاء جددا يتسللون الى قلبي ،فيزحمون علي طه ، حتى فوجئت بموته في نوفمبر سنة١٩٤٩.

يشق عليّ نعي الشعراء ويبكيني ،بل وينفضني من اعماقي . وعلى قلة ما بكيت فقد بكيت لموت علي طه ، ولموت ابراهيم ناجي، ولموت بدر شاكر السياب .

وبعدالبكاءتاملت مكان علي محمود طه ، فوجدته قد صفر . ووجدت من زاحمه هو بلبل الشعراء الجريح ابراهيم ناجي ، الذي أسعدني الحظ بمعرفته في العام الاخير لحياته ، ثمهذه اللغة التي اصبحت اتقن القراءة بها ، والتي استطعت من خلالها ان اقرأ بعضا من شكسبير وكيتس وشيلي واليوت .

والان ، اجدني في هذه الخمس عشرة سنة الاخيرة ، وقد بعدت عن هذا العالم كله ، عالم أيام الصبا، فلست أعيد قراءة شيء منه الا نادرا . ولكني حين عرض عليّ الاخ سهيل ادريس ان أكتب هذه المقدمة لمجموعة منتقاة من شعر علي طه فرحت بعرضه . فتلك عودة الى لقاء الاحباء الاول . وطلبت دواوينه في مكتبتي فاذا معظمها معار او مفقود ، فطلبتها عند باعة الكتب ، فاذا بها نافدة . وتساءلت كيف لم يعد طبعها وقد اعيد طبع بعضها خمس مرات او ستا في حياته القصيرة . أيموت الشعراء عندنا بموتهم، أم يستجيب الناشرون لما يحب القراء ويطلبون ؟ ماذا نقل علي محمود طه من منطقة الشمس المشمسة الى حافة الظل الظليل ؟ اهو تغير ذوق العصر واختلاف تلك المنطقة الغامضة الفريدة من ادراك الامة ووجدانها واحساسها او ما يطلق عليه أحد النقاد «Sensebility» بحيثانه ما كان يفتن القراء قبل عشرين أو ثلاثين عاما لم يعد يفتننا الان، أم هو شيء كامن في شعر علي محمود طه ، يجعل سيرورته وئيدة في الزمان ؟

ولعل ما يجعل هذا السؤالملحا هو مدى الشهرة الواسعة التي حظي بها علي محمود طه في زمانه، بحيث خسف نجمه نجوم معظم معاصريه من الشعراء . وقد كان مكان الشاعر من اهتمامالمجتمع في ذلك الزمان مكانا محدودا ، وكان المجتمع كان ينتقم لما اسبغ من شهرة واسعة على لات الشعر وعزاه : شوقي وحافظ . ولكن علي طه استطاع ان يتخطى الدائرة التي لم يستطع ناجي ومحمود اسماعيل وابو شادي وصالح جودت والهمشري ان يتخطوها . وها هي ذي الدائرة تضيق على ذكراه بعد جيل واحد من الزمان :

وثمة سؤال يولد من السؤال الاول ، وهو أين مكان علي محمود طه في حركة الشعر الحاضر ؟ ولن نستطيع ان ندرك مكانه الا اذا قسنا مدى أثره في خلفائه من الشعراء . وعند ذلك نجد اثره ضئيلا واهنا . فرغم كثرة مقلديه في زمانه الا ان احدا منهم لم يستطع ان يتمثله ثم ينطلق به الى أفق جديد . فكأنه نهير شق طريقه على مهل ،ثم تسرب في الرمل .

فلنعد اذن قراءة علي محمود طه على هذه الاسئلة تجدجوابا.

* * *

يفجؤنا في علي محمود طه هذا الاتساع الشديد لعالمه الشعري . فلن نذكر غرضا من اغراض الشعر كما يراها القدماء او المحدثون الا ووجدت لعلي طه اسهاما فيه او اقترابا منه ، قل ما شئت في المدح والرثاء والغزل ماجنه وعفيفه والوصف ظاهره وباطنه ، وقل ما شئت في شعر التأمل او الفلسفة أو الحكمة . ولو تجاوزت ذلك الى الشكل لوجدت القصيدة الموحدة القافية التي تنسج على منوال القصيدة التقليدية العربية ، ثم لوجدت القصيدة الرباعية القافية والثنائية والموشحة ، ثم لوجدت القصيدة الحوارية ، وضربا منمحاولة المسرحية الشعرية . ولو تجاوزت ذلك الى عروض الشعر لوجدت كل ابحره ممثلة في نتاجه الشعري ما عدا بعض غير الدارج منها.

ولو وقفنا عند عالم اهتماماته وقفة متأنية لعجبنا كيفيستطيع شاعر بمفهومنا المعاصر ان يهتم بأن يتحدث عن امرأةترتديغلالة رقيقة نائمة تحت نافذتهاالمفتوحة في ليالي الصيف القمرة. فيقول:

على خديك خمر صبابة افرغها دنا

رحيق من جنى الفتنة لا ينضباويفنى

وفي نهديك طلسمان في حلمهما أفتنا

الى كنزهما المعبود بات يعالج الردنا

أغار ، أغار ان قبل هذا الثغر او ثنى

ولف النهد في لين وضم الجسد اللدنا

فان لضوئه قلبا وان لسحره جفنا

يصيد الموجة العذراء من أغوارها وهنا

وهو مع ذلك يحيي عيد الهجرة عاما بعد عام

غن بالهجرة عاما بعد عام وادع للحق وبشر بالسلام

وترسل يا قصيدي نغما وتنقل بين موج وغمام

صوتك الحق فلا يأخذك ما

في نواحي الارض من بغي وذام

ويقول منشدا الهجرة في قصيدة اخرى :

يا شرق ملء خاطري سحر وملء ناظري

أوحى لليلك القديم أم رؤى الزواهر

يا شرق ، أي ليلة رائعة الدياجر

نجومها خلف الغمام أعين المقادر

ترنو على جانب السماء للمهاجر

تمد من شعاعها مثل جناح طائر

رعيا المحب للحبيب حف بالمخاطر

تقول ، ههنا السرى ومن هنا فحاذر

والشاعر حين يتحدث في قصائده الوطنية في أيام الانتفاضة التي تلت ١٩٤٥ يهاجم الانكليز ، ثم نجده يرثي سياسيا مصريا كان من أخلص أعوان الانكليز هو امين عثمان قائلا :

كم شهيد فيك مهدور الدماء ... لا ترائي ، أنت أم الشهداء
كل غال من متاع ودم ... لك يا مصر ، وما عز الفداء
قيل أودى بأمين قاتل ... كيف يودى بذيك الامناء
كيف يودى بفتى من خلقه ... كل معنى من سماح ووفاء
لا تقولوا طائش في رأيه ... انما الرأي عن العذر براء
انما اعناس لهم آراؤهم ... وهم الاحرار فيها الطلقاء

وعلى هذا المنوال تمضي هذه القصيدة . ويمضي كثير غيرها من قصائده ، منفردة في عالمها ، بعيدة الشبه بما سبقها وتلاها ، فكأن الشاعر يتخذ لكل مقام مقاله ، ويحشد لهذا المقال أهبته ، فيعد له ما يوائمه من أفكار وصور ، وما ينسجم معه من تعبير .

والحق أن علي محمود طه مسجل وافر الدقة والامانة للاحداث المصرية والعربية والعالمية ، فقد كتب قصائد عن باريس وسقوطها وعن الحرب وأهوالها وعن كل القضايا الوطنية والسياسية التي مرت بالوطن العربي . وهو يشبه شوقي في ذلك كثيرا ،واوضح شبه له بشوقي هو منهجه التقريري الخطابي في تناوله هذه الاحداث، ودنوه في تناولها من الافكار الشائعة الدانية ، وحرصه على جهارة اللفظ ورنين الايقاع ، فكأنه يريد أن يخاطب بهذه القصائد جمهورا واسعا ، أو كأنه ينشدها في حفل زاخر .

هذا الجانب الاجتماعي من شعر علي محمود طه هو اخفى جوانبه ، فقد كان القراء يعرفونه بصبواته وحديثه عن معاشقه . والحق ان خمسي أشعاره على الاقل تخرج عن نطاق ذكر الصبوات والمعاشق الى أفق القضايا السياسية والقومية والاجتماعية .

ونحن لا نستطيع ان نحاسب شاعرا على اتساع عالمه ، فتلك ميزة تحسب له ، لا نقيصة تحسب عليه . ولكننا نطالبه حين يتسع عالمه ان تكون زاوية رؤيته لهذا العالم المتسع زاوية محددة موحدة ، وان تكون النفس التي تتحدث عن الهجرة وعن ابطال المعارك وعن سياحة الجندول في عرض القنال نفسا متآلفة لا منقسمة . فنحن لا نستطيع ان نتحمل شاعرا يلبس لكل حالة لبوسها ، ويتخير لكل موضوع زاوية الرؤية التي تنسجم معه ، والتي تنسجم مع الذوق العام لجماهير الناس حين يعرضون له . وهكذا كان علي محمود طه الى حد كبير . فهو اذا تحدث عن الصبوة والشيب هبط في الفكر رغم علو الصياغة ليقول :

وقيل كفته عن دنيا شوارده
بيضاء من شعرات الرأس غراء
لا ، يا غرامي ، هذا الفن ملء دمي
وبالنار والصبوات الحمر عشاء
ما افلتت من يدي غيداء عاصية
الا وعادت اليها وهي سمحاء

ويقول في رثائه لصديقه الشاعر محمد الهمشري :

لم يا حياة ، وقد احلك قلبه
لم تؤثريه هوى المحب الشاكر
اخليت منه يديك حين حلاهما
من ذلك الادب الرفيع الباهر
لو عاش زادك من غرائب فنه
ما لا يشبه حسنه بنظائر

ويقول في قصيدة بعنوان (( حديث قبلة )) ويفجؤنا بهذه السطحية الشديدة في الاحساس ، رغم جودة الصياغة وحسن انتقاء الكلمات :

تسائلني حلوة المبسم ... متى أنت قبلتني في فمي
تحدثت عني ، وعن قبلة ... فيا لك من كاذب ملهم
فقلت أعابثها ، بل نسيت ... وفي الثغر كانت ، وفي المعصم
فان تنكريها ، فما حيلتي ... وها هي ذي شعلة في دمي
سلي شفتيك بما حستاه ... من شفتي شاعر مغرم
ألم تغمضي عندها ناظريك ... وبالراحتين ، ألم تحتمي

هبي أنها نعمة نلتها ... ومن غير قصد ، فلا تندمي
فان شئت أرجعتها ثانيا ... مضاعفة للفم المنعم
فقالت ، وغضت بأهدابها ... اذا كان حقا فلا تحجم
سأغمض عيني كي لا أراك ... وما في صنيعك من مأثم
كأنك في الحلم قبلتني ... فقلت : وأفديك أن تحلمي

وقد يكون هذا الاتساع في العالم الشعري مع تنافر زوايا الرؤية ، وهذا الحرص على الدنو من تصور عامة الناس للاشياء ورؤيتهم لها ، هما الميراث الشعري الذي ورثه علي طه من تراثنا القديم ، فصورة الشاعر المجيد في تراثنا القديم هي صورة القائل الفصيح الذي يستطيع النظم في شتى فنون القول ، دون ان يحس بحاجة نفسية الى التعبير عن غرض ما من الاغراض . فهو يمدح ويرثي ويتغزل ويصف ويطلق الحكم بنفس الدرجة من الاتقان، وهو لا يحاسب الا على اتقانه ، وعلى قدرته على الاندماج في الموروث التقليدي للغرض الذي يكتب فيه . كما كانت صورة الشاعر المجيد في تراثنا القديم هي صورة القائل الفصيح الذي يعبر عما في نفوس الناس لا عما في نفسه وذاته ، ويستطيع ان يصوغ خلجاتهم لا خلجاته ، بحيث يجد المستمع بداهة ما كان يفكر فيه نابضة في كلمات الشاعر .

فهل نستطيع اذن ان نقول أن علي محمود طه شاعر سلفي تقليدي؟ لا أظننا نستطيع ان نذهب الى هذا المدى . فهو بلا شك شاعر يعيش في عصره . وما أظن نصيب السلفية فيه أكبر من هذا القدر الذي أشرت اليه .

ولكن .. ما مدى حياة علي محمود طه في عصره ؟.

الواقع أن قياس مدى حياة الشاعر في عصره أمر عسير. ولو طرحنا للمقارنة شاعرين كشوقي وأبي العلاء المعري لنرى مدى حياة كل منهما في عصره لتكشفت لنا المقارنة عن ان أبا العلاء المعري كان أكثر حياة في عصره من شوقي ، فرغم أننا نجد في شوقي متابعة دؤوبا لاحداث العصر وشخصياته ، ونلتقط من شعره اسماء أعلام العصر وأمرائه وسادته ونابهيه ، ورغم اننا لا نجد شيئا من ذلك قط في شعر أبي العلاء ، فان شعر أبي العلاء المعري يقدم لنا النبض الحضاري لارض الشام في القرن الحادي عشر بأكثر مما يقدم لنا شوقي النبض الحضاري لارض مصر في القرن العشرين. فهل يكون الفرق بينهما أن أحدهما عاش في عصره ، بينما عاش الاخر مع عصره ، وأن أحدهما اندمج فيه ، بينما أشرف الاخر عليه من عل يرى ويسمع ويتأمل ؟

هنا لا بد من الالحاح على لون من وحدانية الشاعر ، فالشاعر في مراحل التأمل والاحساس والابداع ليس جزءا من العالم ، ولكنه معادل له ،وهو لا يفني فيه . ولكنه يقف ازاءه . وهو يستطيع ان يحقق فرديته ، بل وحدانيته . وتلك درجة لم يستطعها الا القليلون .

لا يعني ذلك قط أن يصرف الشاعر تأمله وانفعاله عن عصره ،وأن يثوي في عالم وهمي غير محدد ، فذلك ، فضلا عن استحالته ، لا يصنع شاعرا قط ، ولكنه يعني ان تكون للشاعر الرؤية النافذة المتمعنة ، ثم القدرة بعد ذلك على اعادة تركيب الرؤى والاحساسات، بحيث لا يقع تعبيره في دائرة العادي والمبتذل ، وبحيث يكشف شعره لقارئه ، لا الجانب المألوف من التجربة الانسانية ، بل جانبا آخر جديدا كان مستكنا في أغوار الانسان أو أغوار العصر حتى جلاه لنا هذا الشاعر .

وأظن ذلك كله يستدعي أن يكون للشاعر وجهة نظر عامة في مشكلات الكون الكبرى، او بتعبير عصري أن تكون للشاعر فلسفة، ولا نعني بالفلسفة هنا ان يكون الشاعر فيلسوفا او قارىء فلسفة، بل أن يكون له تصور خاص للكون تصنعه ثقافته وقراءاته وتجاربه ووراثته ومزاجه ، واذا كان لكل انسان فلسفة بهذا المعنى ، وكان لكل شاعر فلسفته أيضا ،فان بعض الشعراء يهربون من انفسهم

ومن فلسفتهم حرصاً على أن تتسع دائرة جمهورهم ، وان يحتفظ شعرهم بصفائه الساذج الذي يستطيع ان يتوجه الى الجماهير الساذجة فيكون في ذلك دمارهم .. « الشهرة العامة هي الدمار العام » كلمة رائعة من كلمات الشاعر ريلكه .

على الشاعر أن تكون علاقته بنفسه أكثر وثوقا وحميميةمن علاقته بالعالم ، حتى يستطيع ان يعيش أزاء عصره ، لا فيه .

## - ٣ -

## مراحل

يسأل كل شاعر نفسه في مطلع حياته الشعرية ، ماذا يريد ان يقول بشعره ، وما دور الشاعر في هذه الحياة . وكثيرا ما تتشابه امامه السبل . فما أكثر طرق الشعر ، وبخاصة في أدب كادبنا العربي طويل العمر ، حافل بالنماذج من الشعراء . منهم من أفنى عمره تجويدا للصنعة ، ومنهم من أفنى عمره تصيدا للانهام .ومنهم من عد الشعر لونا من البراعة ، ومن عده لونا من العناء .

وكثيرا ما تتوقف على اجابة الشاعر عن هذا السؤال اشياء كثيرة ، قد يكون من بينها : ماذا يقرأ الشاعر وماذا يدع ، وماذا يحب وماذا يكره ، بل كيف يسلك في الناس ، وما يكون مظهره ، وأي قناع يرتديه ( ولكل انسان قناعه ) .

ويحدث أحيانا أن تتغير الاجابة عن هذا السؤال منمرحلة الى مرحلة في حياة الشاعر ، فهو سؤال دائب الالحاح والطرح اذا وهب الشاعر نفسا لا تالف السكون وتكثر التأمل في شان ذاتها وشان الحياة من حولها .

وقد كان جواب علي محمود طه عن هذا السؤال في اولحياته الادبية واضحا في قصيدته الفخمة « الله والشاعر » ، اذ يقول :

لا تفزعي يا أرض ، لا تفرقي
من شبح تحت الدجى عابر
ما هو الا آدمي شقي سموه بين الناس بالشاعر

ثم يقول : ( والخطاب لله ) :

نا الذي قدست احزانه الشاعر الشاكي شقاء البشر
فجرت بالرحمة الحانه فاملأ بها يارب قلب القدر

ما الشاعر الفنان في كونه الا يد الرحمة من ربه
معزي العالم في حزنه وحامل الآلام عن قلبه

كانت هذه النظرة الرومانتيكية هي جواب الشاعر الاول ،ومنها انطلق علي محمود طه في ديوانه « الملاح التائه » وبها كاشف الناس بشعره . وقدم لهم صوتا رومانتيكيا ينبع من الجو العام الذي ساد الشرق العربي في عشريناته وثلاثيناته ، بتاثير التغير العام الذي أصاب الحياة العربية ، اذ وجدت نفس الظروف التي نشات منهاالرومانتيكية الاوروبية من هجرة للمدن وبدايات للتعليم العام الذي تنمو معه الفردية ، واتساع للطبقة المتوسطة ، وتفكير في التصنيع او التحقيق لبعضه . كما وجدت نفس الظواهر الروحية من حملة على العقل وايثار للخيال .

ومن الحق ان معظم مظاهر التعبير عن الرومانتيكية في بلادنا العربية كانت أصداء للرومانتيكية الاوروبية . فالمنفلوطي مثلا الذي أبكى كل قلب مع « ماجدولين » من بغداد الى تطوان كما قال احد النقاد ، كان معربا صائغا لبعض الآثار الاوروبية ، وابو شادي وناجي وابو شبكة كانوا شديدي التأثر بما قرأوه في أدب الغرب ،والزيات المنشيء والبلاغي وصديق علي طه كان مترجما لبعض اثارالرومانتيكيين الاوروبيين ، وهو الذي أقرأ علي طه بعض مترجماته ، وهو الذي حضه على تعلم الفرنسية .

ولكن هذا التأثر لا يستطيع ان ينفي ان البيئة العربية كانت ممهدة للموجه الرومانتيكية ، وان هذه الموجة لذلك كان عنصر الاصالة فيها واضحا ، فاذا كانت قد بدات تقليداً فقد استطاعت ان تكون بعد فترة وجيزة اتجاها رئيسيا ، بل استطاعت ان تكون هي الاتجاه الرئيسي في أدبنا العربي في تلك الفترة .

وعلي طه لم يكن رائدا لهذا الاتجاه ، ولكنه كان أكثر شعرائه صقلا ، وكأنه أحس بغريزته الاجتماعية أن هذا الاتجاه هو اتجاه المرحلة . ومن هنا فان ديوانه « الملاح التائه » دون دواوينه اللاحقة ، صورة من أروع صور الاتجاه الرومانسي .

ففي قصيدة مثل قصيدة « النشيد » نستطيع ان نلمس أصداء من ليالي دي موسيه التي ترجمت الى العربية في وقت مبكر ، ولكننا لا نخطىء أصالتها الرومانتيكية . وفي قصيدة « الامسية الحزينة » .. يقدم لنا صورة حياته قائلا :

آوي الى جنبات الصخر منفرداً
أبكي لامسية مرت وليلات
قد غيرتنا الليالي بعدها سيرًا
وخلفتنا العوادي بعض اشتات

. . . . . .

يا طول ما نغمت للصخر أناتي
وشد ما رجعت للموت آهاتي
يا للبحيرة من يرتاد شاطئها
ومن يسر الى الوادي مناجاتي
ومن يعيد لنا أطياف ليلتها
وما غنمنا عليها من أويقات
وحلوة في حفافيها وقد عبثت
يد الصبا بحواشيها الموشاة
يضمنا باسق في الشط منفرد
ضم الشتيتين في علياء جنات
وللقلوب أحاديث يجاوبها
تناوح الطير في ظل الخميلات

وحين يحدثنا عن البحيرة في المقطع الذي اوردته لا نملك الا ان نذكر بحيرة « لامرتين » ، لا تعسفا ، فنحن نعرف ان الشاعر كان جارا لبحيرة المنزلة احدى بحيرات دلتا مصر ، ولكن فرق بين ان يجاور انسان بحيرة من البحيرات ، وان يجعل منها عشا لغرامه وموطنا لذكراه .

وما أكثر الاوصاف التي تطالعنا في قصيدة مثل « صخرة الملتقى» والتي لا تكون الا نموذج الشاعر الرومانتيكي ،فهو :

.... الغريب في تيهه النا (م) ئي كئيب الفؤاد والمنظرات

. . . . . .

صحراء الحياة ، كم همت فيها شارد الفكر تائه الخطوات
ظللتني الحياة منفرد النف ( م ) س أبث المحيط حر شكاتي
أنا فوق المحيط كالطائر التا ئه يعلو موائج الملحمات

. . . . . .

أنا ذاك الشادي الذي نسلت ريـ ( م )
ش جناحيه هبة العاصفات
أنا ذاك الشريد في صحراء الـ (م )
عيش ضل السبيل في الفلوات
أنا قيثارة جفتها الليالي في زوايا النسيان والقفلات

ويصور الشاعر نفسه في قصيدة من « رمال المصيف » فيقول:

أذا اقبل الليل يا حيرتي تفقدت في الشط حوريتي
وعدت كئيبا الى غرفتي اراعي الكواكب من شرفتي
وأشغل بالوجد سيجارتي فلا البدر حبب لي سهرتي
ولا البحر هدأ من ثورتي وحيدا تسامرني فكرتي

هذه الصورة الشخصية جديرة بان تستوقفنا ، فلو كانت بالريشة واللون لوجدنا فيها نموذجا شائعا للشاعر الرومانتيكي .

ولننظر في قصيدة « انتظار » هذا اللقاء العاطفي الرومانتيكي،

اذ يلتقي المحبان فيظلهما الصمت الرهيب ، ويظلان صامتين حتى تحين ساعة الوداع ، فيتوادعان وقد امسك كل منهما يد صاحبه، والدمع يهمل من عيونهما .

اقبلت بالبسمات تملأ خاطري
سحرا ، وأملأ من جمالك ناظري
وأظلنا الصمت الرهيب ونحن في
شك من الدنيا وحلم ساحر
حتى اذا حان الرحيل هتفت بي
فوقفت واستبقت خطاك نواظري
وصرخت بالليل المودع باكيا
ويداك تمسك بي وأنت مغادري

وصدر ديوان « الملاح التائه » عام ١٩٣٤ ، وهذه هي الصورة التي يقدمها عن شاعره ، وهذه هي الصورة التي اختارها الشاعر لنفسه ، او الاجابة التي اجاب بها عن السؤال الذي خايله .

وبين الديوان الاول والثاني ست سنوات ، فقد صدر ديوانه الثاني « ليالي الملاح التائه » في عام ١٩٤٠ ، بعد سياحة الشاعر القصيرة لعامين متواليين في صيف اوروبا . ولقاء الشرقي باوروبا أحد المحاورة الهامة في أدبنا العربي الحديث ، فهو الذي انتج « اديب » لطه حسين ، و« سندباد عصري » لحسين فوزي ، و «قنديل أم هاشم » ليحيى حقي و « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ،وغيرها من أعمال هامة في أدبنا الحديث .

لقاء الشرقي بأوروبا تجربة قد تعصف بالشرقي فتفقده مواطىء قدميه ، وقد تفتح عينيه على رؤية جديدة لواقعه ، وقد تعيده الى بلاده أشد ايغالا في تقديس سلفه وعبادة اجداده .

واوروبا أوجه كثيرة ، فيها الثقافة والحضارة ، وفيها الموسيقى والفن ، وفيها الرسم والتصوير ، وفيها التقدم الصناعي والتكنولوجي ، وفيها جمال الطبيعة ، وفيها أخيرا سهولة العلاقات بين الرجل والمرأة .

ومن سوء الحظ أن علي محمود طه حين زار اوروبا عام ١٩٣٨ لم يكد يفطن الى أن هذه السنة كانت سنة تجمع نذر الحرب العالمية الثانية ، وقمة النزاع بين المذاهب والاراء . ولم يعرف من اوروبا الا مناظر بحيرة كومو وزورق الجندول في عرض البحر، وخمر الراين المعتقة ، وهبنا تسامحنا في أن لا يعرف صراع الفلسفات والاراء ، فهل نتسامح في أن يجهل صراع المذاهب الفنية بين السريالية والواقعية والرمزية ، وان لا يتلمس أسماء كانت في ذلك الوقت تطوف باوروبا شرقا وغربا مثل فرويد وبيكاسو وبرجسون وشو وغيرهم .

لعل مما قاد علي محمود طه الى هذا المزلق في واجهته لاوروبا انه لم يتلق في صباه ومطالع شبابه تعليما منظما ، فهو ينظر الى الادب والادباء كظواهر منفردة لا تيارات حضارية وفكرية لها اصولها وامتداداتها في تربة المجتمع وفي عروق السياسة والاقتصاد والفلسفة والتاريخ . ولعله اختار في تعبيره عن اوروبا دور السائح المتلذذ بما يراه ، اجابة أخرى لنفسه عن دور الشاعر، فما الشاعر الا معبر عن الحسن ، وليس حسن أشد اغراء بالتعبير من حسن النساء وجمال الطبيعة .

ولعل مما قاده أيضا الى هذا المزلق الخطر انه انتقل اثر صدور ديوانه الى طبقة اجتماعية وجيهة تتكون من كبار محرري الصحف ، وبعض السياسيين المحترفين ، وهذه الطبقة المنعزلة بطبعها ضيقة الثقافة ، مؤثرة لتسطيح الامور ، شديدة الولع بالثرثرة عن النساء والخمر والمتعة . فكأنه كان يستجيب لما تراه تلك الطبقة وتطلبه في شاعرها وفنانها .

وقد كان من شأن هذه النغمة التي امتلأ بها ديوان « ليالي الملاح التائه » ان تفتح للشاعر طريقا الى قلب عامة القراء ، ولا غرو فهو يستجيب لخيالهم المكبوت في تصوره للعلاقات السائبة بين الرجل والمرأة ، ويوازي في تلبية غرائزهم لونا من أحلام اليقظة الجنسية التي كثيرا ما تخايل النفوس المراهقة مهما يختلف عمرها ،ما دامت قد ثبتت في وعيها عند حدود المراهقة .

ونحن لا نستطيع ان نعترض ان يتخذ شاعر من اللذة موضوعا له ، ولكن وصف اللذة وحدها لا يكفي ، كما ان وصف الالم وحده لا يكفي ، بل ينبغي ان ينضاف اليهما لون من التعمق ونفوذ النظرة ، بحيث تصبح اللذة فلسفة ومذهبا في الحياة .

وديوان « ليالي الملاح التائه » يستطيع في بعض قصائده ان يتجاوز مجرد الوصف الى ابتداع وجهة النظر .. ولكن ذلك قليل فيه .

ومن الغريب ان الشاعر في هذا الديوان قد غير صورته الشخصية من صورة الشاعر الرومانتيكي التي سبق ان رسمها لنفسه في ديوان « الملاح التائه » الى صورة الشاعر ذي الصبوات والمعاشق او الشاعر المفلوت :

ويك ! لا تنظري الى قدحي   نظرات الغريب واقتربي
شفتاك النديتان به   فيهما روح ذلك الحبب
شهد المنتشي بخمرهما   أن هذا الرحيق من عنبي

. . . . . . . .

رب ليل مر أفنيناه ضما وعناقا
وأدرنا من حديث الحب خمرا نتساقى
في طريق ضرب الزهر حواليه نطاقا
وتجلى البدر فيه ، وصفا الجو وراقا

. . . . . . .

قلت لي والحياء يصبغ خديك : أنار تمشي بها ام دماء
ملء عينيك يا فتى الشرق أحلام سكارى وصبوة واشتهاء
وعلى ثغرك المشوق ابتسام   ضرجته الاشواق والاهواء
او حقا دنياك زهر وخمر   وغوان فواتن وضناء
قلت : يا فتنة الصبا حفلت دنياك بالحب والمنى والاغاني
ما أثارت حرارة الجسد المشتاق الا مرارة الحرمان
ان أجسادنا معابر أروا (م) ح الى كل رائع فنان
أنا أهوى روحية العالم المنظور ، لكن بالجسم والوجدان

هذه الصورة هي الصورة التي ارتضاها الشاعر لنفسه ، حتى قضى آخر أيامه ، وازدادت عنده وضوحا وجلاء كلما ازداد ترحيب دائرة اصحابه وقرائه بها حتى وصلت عنده الى مرحلة الزهو المسرف بقدرته على العشق وبتعدد معاشقه ، كما في قصيدة « اعتراف » في ديوان « زهر وخمر » .

ولكن شيئا آخر كان يخايل الشاعر ، وبخاصة بعد ان ارتبط بالسياسة ، وأصبح قريبا من الوفد ، وهو أن يكون شاعر مصر الاول كما كان شوقي أبان حياته ، يرثي كبراءها ويسجل احداثها ، ويناجي احلامها على المستوى السياسي .

وفي هذا المجال كتب علي طه كثيرا من قصائده ، لعل اجدرها بالبقاء قصائده عن فلسطين . وقد انضمت هذه الموجة في ديوانية الاخيرين .

لقد مات الشاعر الرومانتيكي في عام ١٩٣٨ ليحل محله الشاعر المتعشق الذي يكتب في بعض الاحيان عن اهتمامات الجماهير السياسية . وكلا الدورين متكاملان ينبعان من وجهة نظر واحدة . فالشاعر يريد ان يكون في وسط الحياة العامة ، قريبا من اهتمام الناس . ولا بد عندئذ من اللعب على الاوتار التي ترضيهم وتقترب من فكرهم ووجدانهم .

واخيرا ، لقد اثرت كثيرا من الاسئلة في هذه المقدمة أو هي في الحق سؤال يلد سؤالا لينشق عن سؤال جديد ، فهل وفقت في الجواب عنها ؟

ذلك لك ، أيها القارىء ، بعد أن تقرأ هذه النماذج من شعر علي محمود طه .

**صلاح عبدالصبور**

(*) مقدمة « قصائد من علي محمود طه » الذي يصدر هذا الشهر عن دار الآداب بيروت .